هذه ليلتي
بقلم
د/ نهلة التهامي

سطور من حياة

د / نهلة التهامي

❀ تخرَّجت في كلية العلوم - جامعة عين شمس (التحقت بها منذ ٢٠٠٥ وإلى الآن أنتسب لها فكلَّما فرغت من دراسة جذبتني أخرى).

❀ أدمن العلم وأدعو الله أن أشفى منه بعد أن أتممت دراستين علويتين ولا أجد نفسي أقدم لثالثة.

❀ عملي كأخصائي تحاليل طبية لسنوات أتاح لي التعامل مع كافة الفئات والأعمار لأتابع عن كثب أدب الواقع.

❀ لست أزعم أني كاتبة بعد، فقط أتخذها هواية لعرض بعض أفكاري وتجارب آخرين مروا عبري.

❀ اشتركت بقصة قصيرة **"ظل من بُعد أخر"** ضمن كتاب **"رسائل خطَّها الشيطان"** بمعرض الكتاب ٢٠١٧م.

* قصة قصيرة "**انتفاضة روح**" في مجموعة قصصية "**نون النسوة**" لدار الشهد للنشر والتوزيع "**مبادرة نساء مُبدعات للعمل الأدبي**".

* ثلاث قصص قصيرة بكتاب "**حكايا**" الإلكترونى من خلال دار مشاعر غالية للنشر الإلكترونى.

* قصة قصيرة "**ظهر أجوف**" كتاب "**ببلومانيا**" الإلكترونى، دار نشر ببلومانيا للنشر والتوزيع.

* خاطرة "**شجاعتى فى هروبي منك**" في كتاب "**ببلومانيا خواطر**" دار ببلومانيا للنشر والتوزيع الإلكترني.

* قصة قصيرة "**وهج الظلام**" في المجموعة القصصية "**الرجال لا يتزوجون الجميلات**" لدار ضاد للنشر والتوزيع معرض الكتاب ٢٠١٨م.

* قصة قصيرة "**ما بعد التخاريف**" في المجموعة القصصية "**صحائف إبليس**" للمكتبة العربية للنشر والتوزيع معرض الكتاب ٢٠١٨م.

* قصة قصيرة "**حياة واجبة**" فى مجموعة قصصية "**أهو دا اللى صار**" مبادرة نساء مبدعات دار الشهد للنشر والتوزيع.

❀ قصة قصيرة "**ظهر من ذهب**" بالمجموعة الخامسة "**رغم الوجع**" مبادرة نساء مبدعات دار الشهد للنشر والتوزيع.

❀ مجموعتي الإلكترونية الأولى "**يوميات مدام علال الدين**" بمكانتها الخاصة لديَّ؛ ليست لأنها أول عمل خاص لي بل لأنها الوحيدة الساخرة بلهجة مصرية عامية دارجة بمعرض الكتاب الإلكترونى ٢٠١٧ وعدد من الجروبات الأدبية.

❀ مجموعتي القصصية الورقية الأولى "**أخبار جانبية**" بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ٢٠١٩م لدار المكتبة العربية للنشر والتوزيع.

❀ **للتواصل معي عبر موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك:**

هذه ليلتي

تهاديت بفعل ثقل أحمالي، كعادتي تبضَّعت بطريق عودتي للمنزل بعد يوم عمل شاق، اسمي روفيدا، ثلاثينية أعدوا للأربعين بجدارة، أعمل كإخصائية اجتماعية بمدرسة خاصة ليست بالقريبة ولا النائية وتلك هي مشكلتي معها، قريبة من منزلي ولكنَّها أبعد من أن أصل إليها سيرًا ليصبح التوكتوك هو وسيلة مواصلتي الوحيدة لها فهو وحده القادر على مراوغة ضيق الشوارع وانحرافاتها، في حالة عدم توافره لشدة الإقبال عليه كالآن لا يسعني إلا أن أمشي وابنتي الصغرى آية.

هدرت بقوة: آية، فعادت صغيرتى لمحيطي بعد أن كادت تبعد عن مجال ذراعي، أرتعب إذا ما تركت مداري، ألحقتها بمدرستى لتظل صوب نظري وهو مالا تطيقه، تلومني على متابعتي لها بين الحين والآخر حتى أنها أصرَّت ذات ليلة ألا تذهب للمدرسة إذا ما وعدتها بعدم التدخل بشئونها طوال اليوم الدراسي، عجبًا لابنة الثماني أعوام وتحكُّماتها، من جديد وقفت برهة ألتقط أنفاسي وأصرخ بآية أن تكف عن ركل حقيبتها وأن تُحسِن حملها، في غمرة وقع الأسامي الجديدة والغريبة التي

أطاحت بصواب الجميع تأتي تسميتي لأبنائى بأسماء عادية مثار حيرة معارفي، ابني الأكبر يوسف وصغيرتي آية هما كل ما أملك، بعد ما مررت به من ملحقات غرابة اسمى طوال حياتي أصريت أن يحمل أبنائي من الأسماء ما يليق بكل زمان ومكان حتى لو لم يعجبهم هذا الآن.

علا نفير مزعج تلاه سيمفونية من الكلاكسات المروعة، لا أميز كثيرًا نفير سيارة الإسعاف من المطافي ولكن أدعو الله أن يؤتى بطيب العواقب بعدما اجتمع النفيرين، أدَّى الزحام بالشارع الرئيسي إلى محاولة السيارات الهروب عبر الشوارع الجانبية لتزيد الأزمة المرورية أكثر، جفَّفت وجهي ووجدت أصبع خالي لتتعلق به آية حتى نعدو من ذلك الزحام الخانق، هانت لقد وصلنا لشارعنا، دقائق وأغمر وجهى بالماء البارد وأدع عني حملي الثقيل. هنا هاجمنى دخان خانق ومزيج من الأصوات الصارخة؛ يوجد حريق بشارعنا!! من بعيد رأيت سيارة الدفاع المدني فى أخر الشارع يفصلنى عنها الكثير من الأشخاص والسيَّارات، يفصلونني عن منزلي!

دبَّ الرعب في قلبي وتوقف عقلي إلا من دعاء يارب سلم يارب سلم، الآن موعد عودة زوجي عصام ليجد ابننا الأكبر

يوسف قد عاد من مدرسته الإعدادية، سيلومني عن تأخري بإعداد الطعام وسيتخذها يوسف حجة ليبتاع حلوى ويمضي قرابة الساعة مع رفقائه بالشارع ليعود متعب من أن يؤدي واجبه المدرسي، ليتهم يتأخرون اليوم في العودة للمنزل، ليتك يا يوسف تمضي لتلعب مع أقرانك بجانب المدرسة ولا تعد الآن، نفير من سيارة تواجهنى هاربة من معركة الحريق أعادني للواقع، أجر قدمى جرًا لأعدو كالمجنونة صوب عمارتنا، غلفنا دخان أسود يعمي البصر ويحرق العين والقلب معًا.

أشعر بلفحات من المياة تتناثر أثر عدوي عليها، مسح الشارع بمياه الإطفاء كما لم يفعل منذ أخر عهدنا البعيد بالمطر، ألا يا ليت هناك مطر يطفئ الحريق بقلبي وبالعمارة، توقفت بغتة بعد أن سقطت آية فجأة، هنا فقط نظرت ليداي أجدهم فارغتين إلا من يد الصغيرة أعتصرها بيدي، لابد أنني فقدت حملي ولست أبالي به، أنهضتها وتابعنا العدو، مزيد من العبارات تتصارع بأذني؛ إرجعى، الطريق مغلق، ربنا يعوض عليهم، يتناثر الجيران والمارة بالشارع مع رجال الإطفاء بفوضى عارمة، يتواثب الجمع عكسي بعيدًا عن وهج الحريق بينما أعدو تجاهه، مرَّ بجانبي قط يركض عكسي مسرعًا هاربًا من ذيله المتأجج بالنيران.

اصطدمت عيناي الدامعة وقلبي المُدمَّر برؤية نار عظيمة شبَّت واستولت على عمارتنا، تراقصت النيران على بنايتنا، تطل من نوافذها تلهب العقل خيالًا، للحظات لم أعي سوى حمرة النيران بألسنة لهبها تغيظني وسواد دخانها الكثيف يخنقني وبرودة المياة بقدمي تُخدِّرني، لقد اعتدت على عري الأشجار من أوراقها بفعل الخريف لا الحريق، ها هي الشجرة أمام بنايتنا وقد التهمت النيران خيراتها وتركتها جزع محترق، يتصارع رجال الإطفاء بكل صوب للسيطرة على الحريق، يعملون جاهدين لمقاومة الحريق ومحاولة إخماده قبل انتشاره وإلحاقه أضرارًا أكبر في الممتلكات، والأرواح لم أدري ماذا أنا بفاعلة؟ هل أعدو لأخترق النيران بحثًا عن ابني وزوجي أم أحترق من انتظار أي خبر عنهما؟! تعلَّقت بي آية وبدأت بالبكاء، انهارت تبكي عسى أن تطفأ دموعها تلك النيران، نشيجها ألهب دمعي.

أخذت بسؤال كل من أراه عن الشقة السادسة بالدور الثالث هل بها أحد؟ لم يشف أحدًا ناري، الحريق امتدَّ عبر المنور لعدد من الشقق، أركض بأعقاب الرجال بحثًا عن مصابين أو ناجيين، لن أحتمل فقد أى من الخيارين، ظلَّ قلبي يناجي ربه داعيًا بالنجاة وعقلي يعبث به الشيطان بسوء الظن، الكثير من ماذا لو

أحالت أعصابي للانهيار، ماذا لوعاد يوسف مبكرًا من مدرسته وانشغل باللعب بهاتفه الذى يصبح حينها كل دنياه؟ ماذا لو لم ينتبه للحريق لينجو بنفسه في اللحظة الحاسمة؟ ماذا لو كان الحريق بفعله عساه أراد تحضير طعام وغفل عنه كعادته؟ ماذا لو أن عصام عاد مبكرًا وأثر النوم قبل الغذاء؟ ماذا لو أن أحدهم أو كلاهما سقط من الاختناق لا الحريق؟ لوعتى تزايدت وبحَّ صوتي من الصراخ حتى تهاويت أفترش الرصيف.

بدأ سعال آية يتزايد، تراكم الدخان حولنا حتى كاد يخنقنا. حملتها وعدوت بها بعيدًا حتى صادفتني سيارة إسعاف على بُعد أمتار قليلة، دون كلمة أخذوا مني آية وبدأوا بإسعافها وتضميد جراح ساقها من أثر السقوط، أحدهم قام بقياس ضغطي وأعطاني عدة أنفاس من أسطوانة الأكسجين علَّها تزيل الرماد بصدرى. هاجمني صراخ هادر لأنين، بسيارة إسعاف مجاورة تم نقل واحدة من جيرانى لم أتمكن من معرفتها بسبب الحريق، فقط أدمت قلبي بدمائها الممزوجة مع نسيج ثيابها المحترقة، ارتجفت هلعًا ريثما ابتعد نفير الإسعاف ناقلًا إياها لمستشفى قريب، كم مرَّ من الوقت لا أدري قبل أن أعود لأقف على بعد خطوات من بنايتنا السوداء، ضاعت ملامحها الجمالية ومدخلها الأنيق وإن

حافظت على شرط وحدة الوجهة بأن اعتراها جميعها السواد.

من بعيد رأيت رجال الإطفاء والشرطة تمنع الوافدين من الدخول للعمارة لحين الانتهاء من عملية التبريد تأمينًا على عدم اندلاع حريق جديد، لا أعرف لِمَا أشعر أنني جوفاء بعد أن نضبت طاقتي وجفَّت دموعي!

لقد أتت النيران على مشاعري وأحلامي وأعصابي، عقلي بدأ يرى ما تراه عيناي، جيرانى رفقاء السكن حولي كلٌ يعدو بواديه، ها هي مدام مها تختفي تحت عباءة رجالية تبرَّع بها أحدهم لتخفي بها ثوبها المنزلي، يسير عم جاد حافي القدمين ويعاون أحدهم في حمل صغير فاقد الوعي بفعل الاختناق، نجوى تتمسك بما أنقذته من أشياء وتبكي ضياع منزلها كما منع بعضهم أخر من أن يخترق النيران فأخذ يرتطم الجدار برأسه هلعًا على أسرته، يركض عمر بجانبي فاستوقفه لسؤاله عن يوسف ابني وصديقه ليجيبني بأنه لم يراه اليوم ولم يفتني أثر الحريق بذراعه واللهب الذي أطار القليل من شعر رأسه، صغيرة تتشبث برعب بدميتها المحترقة بجانب رجل يعلوه الرماد ويمسح بيده السواد عن ابنته، اعتصرت يد آية بيدي فتلك المشاعر لا ولن تصفها الكلمات.

لقد هاجم الحريق الجميع على حين غرة مهاجمة الخسيس، حمدت الله على عدم تواجدي حين نشب الحريق، هل كنت سأنجح في الفرار أم سيجبرني أي عائق على مواجهة آلام الاحتراق كتلك التي ذاقته ورأيتها؟ حقًا إن العذاب بالنار هو الأشد وطئة على النفس لذا أختص الله نفسه به، رجوت الله أن ينقذني من عذاب الاحتراق والنيران بدنياي وآخرتي وأن يحفظ أسرتي كذلك منه، أسرتي، أه يا أسرتي.

نامت صغيرتي بحضني بعد أن أنهكها البكاء والصراخ، نظرت لوجهها وثيابها الملطخين بالوحل وفكرت بيوسف وما عساه اجتاز اليوم وهل سأراه مرة أخرى أم....

جزء من قلبي انفطر ألمًا، لا أعلم لما شعرت أنني لست عادلة بلسان دعائي الدائم ليوسف، بالرغم من اعتصار روحي لفكرة فقد توأمه، عصام، كل تلك الضحكات والمواقف الصغيرة قبل تلك الكبيرة وكل المشاعر واللحظات الحانية بيننا تجمعنا جالت بقلبي، رفيق دربي وسندي بدنياي، مشاحنتنا سويًا التي غالبًا ما تنتهي كما بدأت فجأة ودون أن تخلف أي أثر دائم، لكم كان زوجًا كريمًا..... كان!!! كلَّا، احفظه ربي وأعده لي وابني سالمين فلست على حمل فراق أحدهم بقادرة بعد.

مرَّ الوقت بطيئًا أم ركضت بي الساعات حتى خلتني أرى يوسف وأباه يركضان تجاهي، نهضت من على الرصيف فجأة حتى كادت آية تسقط مني، أتخالني أرى سراب؟ كلا، لقد استجاب الله أخيرًا لدعائي ورأيتهم معافيين بأم عيني وإن أطلَّت نظرات فزعة على وجوههم، لمَّا وصلا كانا يرشحان بالعرق ويلهثان، كان وجه عصام الأسمر الداكن أصبح شاحب من الخوف علينا بعدما رأى العمارة بحالتها تلك، استيقظت آية فزعة من اعتصار عصام لنا ثمَّ ما لبثت أن تعلَّقت برقبته وقد تهلَّل وجهها.

لم أكف عن تقبيل يوسف ولم تكف دموعي عن الهطول حتى تلوث وجهه بالوحل، خارت قوانا وجلسنا جميعًا على الرصيف يخشى أحدنا أن ترمش عينه فيختفي الآخرون من أمامه كالحلم، كسر عصام صمتنا الوجل بالسؤال عمَّا حدث؟ ألا يعلم؟! نظرت لعمارتنا المحترقة وقد أنطفأت بعد وهجها الحارق، رويت له كيف عدت لأجد العمارة تحترق وكيف تناثر الساكنين منها، لم تعد الكلمات تصلح لأن تُعبِّر عمَّا لاقيته أو شعرت به اللحظات الماضية كل تلك المشاعر المتضاربة داخلى تجمعت لتسكب عينى المزيد من الدموع، ألا زالت بها دموع؟! ربت عصام عليَّ في حين ارتمى يوسف في حضنى وقد فكر لأول مرة في احتمال رحيلي الدائم عنه دون وداع.

على الرغم من كون يوسف بعمر مناسب لأن يعي حقيقة الموت إلا أنه لم يفكر في فقدانه أحدنا، أسئلة طلَّت من عينيه حملت معها هلعه، صدمته الظاهرة جعلتني أشفق عليه حين تحين ساعة رحيلنا حقًا، سمعته يتمم بصوت خافت؛ غريبة، لا يتوقع أحد أن يصاب الأشخاص الذين نحبهم بالمرض أو الموت، بل نتخيلهم بغباء سيظلون معنا إلى الأبد بطريقةٍ ما، لم يترك يوسف يدي وزاد من ضغطه عليها، نظراته الهلعة في رؤية الدمار حوله تعود كل مرة لتستقر علينا ليتأكد من نجاتنا من تلك الفاجعة، تلاصقنا سويًا كان حزام الأمان لنا جميعًا.

بدوري سألت عصام عن سبب عودته المتأخرة تلك مع يوسف التي أحمد الله عليها كثيرًا، ربَّما لم يكن توقيت السؤال مناسبًا ولكنني انتظرت الإجابة بشوق، فلولا تأخيرهم لفرغ قلبي من دمائه، بدأ عصام ينظر ليوسف مؤنبًا على شقاوته البالغة في المدرسة حتى أنه دخل بشجار عنيف أدَّى لإصابة زميله يحيى وطلب المدرسة له هاتفيًا بسرعة الحضور لمعاقبة ابنه ورؤية عاقبة صنيعه، لقد أصرَّ عصام أن يرافق يحيى لتقطيب جرحه ثم لإيصاله لمنزله مع تقديم وافر الأسف لوالديه عنه ويوسف، لقد

وافق قرار إدارة المدرسة على فصل يوسف أسبوع كما تعهَّد بتأديبه جيدًا كيلا يكرِّر أفعاله أو يتخذ من العنف سبيلًا يحل به مشاكله بدلًا من مواجهتها.

لأول مرة أكن ممتنة لشقاوة ابني في ظروف أخرى كان سيواجه عاصفتي الغاضبة، وحده القادر على نزع فتيل أعصابي بأفعاله الهوجاء وأسلوبه المستهتر، كل الهراء عن تمالك الأعصاب مما درسته والتعامل به كصميم عملي بل حتى أن أنصح به الآخرون لا يعدو أن يكن هراءً إذا ما اقترن بشقاوة يوسف وألاعيبه المراهقة، كنت لأخجل مما فعل لولا كونه السبب فى تفادي مصيبة محقَّقة، ربَّما يفسر هذا نظرة الندم بعينه، سيكون لنا شأن أخر فيما بعد تخطي محنتنا، هكذا لن أقلق على عدم مواظبة يوسف على الذهاب لمدرسته فأمامنا أسبوع نتدبر أمرنا فيه.

بدأت الغيمة في السماء تتبدَّد وقد بدَّدت أحلامنا البسيطة معها، أين لنا بالمبيت الآن؟ ومن يمنحنا مأوى مناسب؟ بعد أن هدأ عقلي وقلبي باطمئناني على أفراد أسرتي، بدأت في الهلع لمصيرنا المجهول، منزل عائلتي بمحافظة نائية حيث يمكث

أغلب أفراد عائلتي إلا من رحم ربي وأتخذ من الهجرة سبيلًا، عصام وحيد وقد باع شقة أسرته ليبتاع تلك الشقة قبيل زواجنا، هل نتطفل على أحد الأصدقاء أم ماذا؟!

أسدل الليل علينا ستائره وحظينا بصفاء قل مثيله بتلك الأوقات، عمَّ سكون نسبي بعد أن رضخ الجميع لإرهاقهم، من بعيد طلَّ صوت أم كلثوم شاديًا "**هذه ليلتي وحلم حياتي بين نار من الزمان وأتٍ**" ربَّما ذلك المقهى البعيد هو مصدرها، ألا يكفينا ما نحن فيه ليطأ جراحنا بأغنيته، هذه هي حقًا ليلتنا الليلاء! لم يسبق لي سماع تلك الأغنية من قبل فلست ملمة بأغاني أم كلثوم بأكثر مما يُعدُّوا على أصابع اليدين، لاحقًا وجدتها تقول "**بين ماضٍ من الزمان وأتٍ**". لقد لعبت النيران بمخيلتى حتى أننى كسوت بها الأغنية، هل تخطَّينا النيران حقًا وأصبحت ماضًا لنا؟!

لم أشعر بالضياع كالآن قط، عدت لأسمع " **وديار كانت قديمًا ديارًا.. سترانا كما نراها قفارًا** " فطعنتني الأغنية بعمق في جراحي، ليس لنا الأن ديار وأين نحن من ديارنا الآن؟ تذكَّرت شقَّتي وجفَّ حلقي ألمًا، كنت أرغب بالقيام بالعديد من التجديدات التي كانت مثار خلاف بيني وعصام، لم نقم بأى

تجديد منذ زواجنا حتى باتت الجدران باهتة وفقد الأثاث رونقه. الآن أصبحت قفارًا مثلنا دونها، ذلك المقعد الوثير بمدخل الشقة، أفتقده، حالما أدلف للشقة أتهاوى عليه للحظات أسترد فيها أنفاسي قبل أن أحمل أثقال يدي مجددًا؛ دائمًا ما تحمل بيدها الكثير من الحقائب لا تتذكر راحتها منهم يومًا، إلا اليوم، لقد ذهب كل شيءٍ الآن، مصاغي الغالي وجهازي وكل ما لي، كيف لنا أن نعيش الآن وقد فقدنا أموالنا وثيابنا.

نظرت لأسرتي من جديد، كنا بأرجوحة في مهب الريح تلهو بها الحياة، إلام ستعصف بنا دنيانا؟ من حولنا بدأ جميع الجيران في ترتيب أوراقه، كانت هناك نظرة واحدة على كل الوجوه، نظرة مليئة بالخوف والضياع واليأس المطلق، همهمات يائسة من كل صوب وأخرى حانقة، مازالت أم كلثوم تغني "**سوف تلهو بنا الحياة وتسخر**"؛ لكم كرهت تلك الأغنية وعاهدت نفسي على عدم سماعها مجدَّدًا تحت أي ظرف، لقد صرعتنا الحياة بلعبها وسخرت منا الحياة بالفعل، الكل يبكي تحويشة العمر من أموال وذهب ونفائس وعقار وحمدًا لله على سلامة تحويشة العمر من الأبناء، بصوت أجش من الصراخ سألت إحداهن ألا من مساكن

تؤينا توفرها لنا الحكومة حتى يقض الله أمرًا كان مفعولًا، تعالت الأصوات واقترب شبح لمعسكر الإيواء بخيماته الرثة البالية من الظهور بمخيلتنا كما الأفلام، بدأ البعض بالمناداة بحقوق المواطنة وضرورة الصراخ بمطالبنا، قبل مضي الساعة أصمت اليأس أفواه الجميع، علمنا أن صراخنا سيسقط في آذان صماء فصمتنا.

أضاء رجال الإطفاء كشَّافات ضخمة أحالوا بها الليل نهارًا. رائحة الدخان والرماد منتشرة في المنطقة رغم تمكن عناصر الإطفاء من السيطرة على الحريق، كان قد رحل ثلاث أسر من أصل عشرة، اثنتان تدبروا أمرهم إما بمسكن أخر أو اللجوء لأحد الأقارب وواحدة في المستشفى بعد أن تعرَّفت على جارتي المحترقة واكتشفت غياب أسرتها عن التناثر معنا بالشارع، جاء جيران الشارع لمواساتنا علُّهم يخفِّفون من مآساتنا، حاول أهل الخير إمدادنا ببعض المقاعد والثياب لمن يرتجف بردًا وخجلًا من ثياب المنزل أو لمن احترقت ثيابه، الكثير من تفضلوا عندنا أثلج القلب قبل أن ينفض العارضون لحياتهم الهانئة، انفرط عقد حديثنا الجامع وبدأت كل أسرة في تدبر أمورها وحيدة، عدنا لننغلق بأفكارنا وأوجاعنا عن الجميع وإن تشابهت.

غلَّفنا الضياع، نظرات حملت من الحديث الكثير، نضج يوسف وارتعبت آية وعصف الفكر بعصام، أين الملاذ؟! كيف سنكمل حياتنا؟ متى نأكل؟ ألن نعود لسابق حياتنا؟ ماذا بعد أن احترقت كل ثيابنا وكتبنا وألعابنا؟ كيف سأمضي بالأسرة لبر الأمان وأين لي بقشة أتمسك بها لأنقذهم؟

لكل منا هواجسه؛ تتسائل بصمت عن المستقبل القريب. كلٌ منا يخشى أن يصُرِّح بأفكاره علانيةً، كلنا خائف، ملأ عقلي هموم وتمنيت العودة لسابق وتيرتنا اليومية الهانئة، لن أثقل على عصام بأى تجديدات، لن ألوم يوسف لإهماله بحاجياته ولن أصرخ بعبث آية بنظام البيت، فقط العودة والاستيقاظ من كابوسنا الناري القاتم.

أشتعلت أحلامي وأفكاري برأسي تاركة رماد حلم، هل أودِّع ذكرياتي بمنزلي للأبد؟ خفَّ ضجيج الألم من رأسي فلم يبقى سوى الرماد، تعجبت لشوقي لأشياء بسيطة أصبحت حلم لي الآن، كدت أبكي حنينًا لحياتي بل حتى لكوبي المفضل حين يمتلئ بالشاي الساخن ليوقظني في الصباح وأخلد به لنوم هادئ بالمساء.

غرقنا في ظلام دامس ظننت أنه بسبب أفكارنا حتى استوعبت أن رجال الإطفاء أطفأوا كشافاتهم الضخمة، بدأوا يركبون سيارتهم متعبين في حين وقف أحدهم؛ ربما قائدهم، أمامنا، التففنا جميعنا حوله، بدأ بمواساتنا لما فقدنا قبل أن يعلن أن مصدر الحريق بالدور الرابع حيث احترقت كلتا الشقتين بالدور، لقد حاولوا الخروج بأقل ضرر ممكن وحمدًا لله على عدم وجود قتلى أو أحدًا في عداد المفقودين، حاولوا حماية الأثاث والممتلكات بعيدًا عن النيران؛ خوفًا من تأثرها بتبعات الحريق، كالدَّخان أو الماء أو الرماد، قاموا بتهوية مكان الحريق فور إخماد النيران للتخلُّص من تجمع الغازات، والدخان المحصور في الأماكن المغلقة، خوفًا من أن تشكل ضغط كبير في مكان الحادث مما يؤدي لحدوث انفجار يُلحق أضرارًا جسيمة في البناية أو الأفراد، مازال التحقيق في مسبِّبات الحريق مستمر وستتابع الشرطة تحقيقاتها كذلك.

عشرات الأسئلة انهالت عليه قبل أن يجيب بهدوء اكتسبه عبر التجارب والخبرات أن هناك درجات متفاوتة فى الحريق بكل شقة بينما لا خوف على أساس العمارة بفعل الحريق، أضاف أن هناك

شقق لم تصب بأكثر من رماد، بصيص من الأمل دبَّ بقلبي، أذن لنا أخيرًا بالصعود وتمَّ فك الحصار، المصعد بالتأكيد معطل ولن يجرؤ أحد على تجربته، صعدنا الدرج وجلين، نخشى الحقيقة كما بات الأمل يؤلم، وبقلوب واجفة دخلنا شقتنا، حاولت إثناء طفلي عن الدخول ريثما نستطلع الأمر لكنهم أبوا بتصميم.

تجولت في المنزل فرأيت مدى الضرر والدمار الذي خلفه الحريق، لم أعلم بعد بما أشعر؟! هل أسعد بأثاثي السليم معظمه أم أحزن بعد أن كسا الرماد جدراني! ربت على الجدران السوداء أشكرها على التحمل والصمود أمام النيران، تفقدت بلهفة أشيائي؛ أجهزتي الكهربائية يدي اليمنى واليسرى بالمنزل، ثيابي وأدوات زينتي وبالطبع شبكتي الذهبية، مرآتي المغبرة المذهبة سابقًا وتحفي الملقاة بركن الغرفة، كدت أقبل الأثاث سعادة، لم نفقد كل شيء بعد، مطبخي الأسود من فحم الشواء، كوبي المفضل المحطم وأواني الطهى المبعثرة الفارغة نكزت معدتي.

تجمَّعنا بالصالة كلنا يحمل نظرة أقرب إلى البلاهة، سعداء بمنزلنا، بجدران تأوينا الطريق وملابس تكفينا البرد، بحياتنا السابقة بعد أن أصبح بإمكاننا التفكير برجوعها من جديد ببعض

التعب والجهد، بلمَّتنا سويًا ليس بيننا فقيد أو مصاب، فقط غصة تخنقنا حين نرى الحريق قد وضع بصمته في كل مكان، رهبة من أتٍ قد يسحق أحلامنا من جديد، حاولت أن أتماسك، جلست غير عابئة بثيابي الملطخة أن تزيل أثار الرماد من المقعد، نظرت لعصام وقد أفترش الكنبة بجسده طالبًا لراحة بعد تعب عقلي مضن، عادت آية بهرتها اللعبة بينما تفقَّد يوسف ويالللعجب كتبه، جلسا جنبًا إلى جنب دون أن يبدئا بالصراخ والتناحر، لقد هزَّتهم الصدمة عميقًا وخيرًا فعلت لعلاقتهم.

لم ينج من دائرة الحزن في هذه الليلة أحد، نعلم أن ألسنة اللهب ستطارد أحلامنا ويقظانا ما حيينا وأن رمادًا قد غلَّف قلوبنا، لم أعلم لم ظللت أردد أغنية هذه ليلتي بعقلي كأنما حُفرت كلماتها بمعاناتي، هذه حقًا ليلتي؛ ليلة المخاوف والآمال. أطول ليالينا وأتعبها، ليلة لن تُنسى أو تُمحى من وجداننا المصابة، ليلة بألف عام، لا شيء سينتزع رماد الحريق ودخانه من صدري أو يمحو صراخ مصابة الحريق من أذني، ستظل تطاردني الظنون ونغز بقلبي ذكرى اليوم ما حييت، لن يمحو الزمن أثارًا حفرت بألم في ثنايا الروح والعقل، سيظل شبح اليوم يطاردني ولكني سأدعوه ليرحل عني اليوم.

أصريت على التشبث بأطياف أحلام وأماني بغدٍ مشرق، لقد انخفض سقف آمالنا لنرضى بأقل القليل يكفينا جدرانًا تأوينا، كما تراقصت بعقلي خطة لمطالبة عصام بإعادة دهان الشقة بالكامل وتجديد أثاثنا بعد أن غزاهم آثار الحريق، صحت بهم وقد عصفت الأفكار بكل واحد منهم: لن أحتمل أن أشم رائحة لشياط الطعام فلنطلب طعام جاهز لنا ريثما نطرد الرماد عن غرفة نوم واحدة ثم نتبادل الاستحمام ولنا في الغد شأنٍ أخر.

تمت بفضل الله

رسالة إلى مجهول

عزيزي المجهول تحيَّة طيِّبة..

أمَّا بعد...

رسالتي ليست إلى مجهول بعينه بل إلى المجهول ذاته،

سلامًا عليك أيها المجهول، لقد انتظرت طويلًا لأكتب لك رسالتي؛ بل هي رسالتي للحياة!! أيها المجهول كنت ومازلت بالنسبة لي الضوء الساطع الذي يغشى الأبصار حد العتمة، مبهم، مخيف ودافئ، فلتكن تلك أولى رسائلي إليك وربَّما آخرها، فلست أدري بعد ماذا أقول؟ إن أكثر ما قيل وأثر بي كان في شرح أساس البحث العلمي!! حينما قيل إن البحث العلمي ماهو إلا جدار عملاق من أبحاث واكتشافات الآخرين؛ نرتكز عليه لوضع حجرنا الخاص ونهيأ لمن بعدنا بأن يرتكز علينا ليعلو الجدار ونكون جزء ولو صغير من صرحه العملاق!

إن الحياة هي تلك الجدار التي نأتي لها معتمدين على تاريخ وقيم وعلم الأسبقين ويظل مسعانا الدائم بها أن نترك قليلاً من الأثر للاحقين، حلمنا الأبيض أن نكن جزء مؤثر من

تروس الحياة، طالما كان أشد ما يشغلني ليست الحياة بدروبها وأسرارها بل ولا حتى بنهايتها بل ما نخلفه من أثر، أثر ما بعد النهاية؛ إنه ذلك الطيف من الذكرى الذي يبقى بعد زوال كل شيء، كل الصراعات والنجاحات سويًا مع كل الإخفاقات ستنتهي يومًا ويظل التاريخ ليُذكِّرنا بها؛ أشفق على كاتبيه فهم بالفعل في امتحان عصيب.

أحلم أيها المجهول أن نملك جميعنا تلك العين البصيرة التي ترى حقائق الأمور بعين العقل حيث تترفع عن صراعات الحاضر وتبقى دائمًا يقظة لعواقبه، ربَّما حينها لم نكن لنخشى كتاب الآخرة.

أيها المجهول بعيدًا كنت أم قريب لتعلم أنني وضعت حجرًا بجدار العلم وأتمنى أن أضع أخر بالأدب راجية أن يظل لي قليلًا من طيب الأثر، وأخيرًا لتعلم إن الإنسان يفوز في الحياة بقدر ما يخسر بها.

محبتي الأبدية

المخلصة

د انهلة التهامي